بدلاً من المقدمة

مدخل تنظيري

في منهجية البحث في الإعجاز التربوي في القرآن الكريم

لا خلاف بين المشتغلين بالعلوم الإسلامية والعربية على كون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المصدرين الأولين لتلك العلوم مهما تختلف مناهج البحث فيها. ولا خلاف بينهم كذلك على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول من هذين المصدرين. وفيما يتعلق بدراسة الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم، هناك أكثر من مدخل يمكن في رأينا إجمالها فيما يلي:

١- دراسة الفكر التربوي من زاوية فلسفية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يعقد موازنات بين عطاء القرآن الكريم في مجال فلسفة التربية وما قالت به الفلسفات التربوية البشرية. ويدرس الباحث هنا الجوانب المعروفة لأية فلسفة تربوية مثل: رؤيتها للطبيعة البشرية، والقيم والوجود، والحرية .. إلخ.

٢- دراسة الفكر التربوي من زاوية اجتماعية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يركز على مشكلات المجتمع وكيف تناولها القرآن الكريم. ويتعمق الباحث في تحليل الأبعاد المختلفة لتلك المشكلات وأثرها في الفرد. كما يتناول البحث في هذا الميدان قضايا العمل والإنتاج والاقتصاد والعلاقات الإنسانية بوصفها من "القوى والعوامل" المؤثرة في أي نظام تربوي.

٣- دراسة الفكر التربوي من زاوية فردية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يبحث وضعية "الإنسان الفرد" في القرآن الكريم بوصفه المحور الذي تدور حوله عملية التربية، فيرى كيف عرض الإنسان في القرآن: خلقاً وتكويناً وتنشئة. وكيف بيّن القرآن أحوال نموه المختلفة وطباعه المختلفة.

٤- دراسة الفكر التربوي من زاوية القصة القرآنية:

وفي هذا الإطار يدرس الباحث قصص القرآن الحافلة بالعطاء التربوي المكثف بحيث يكشف عن مسالك التربية بالقصة في القرآن، ويحلل كيف استخدم القرآن عناصر القصة المختلفة: الشخصيات - الحوار - الزمان - المكان - الأحداث في إبراز الفكرة الأساسية للقصة.

مما سبق يتضح أن هناك مداخل متعددة لدراسة الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم، أشرنا إلى نماذج منها، وهناك غيرها الكثير. ومع ذلك فإن الدراسة الحالية هذه لن تتطرق إلى دراسة مفصلة للفكر التربوي من خلال أحد المداخل السابقة. ولكنها تطمح إلى إثارة "نقاط" بحثية يمكن لمن يرغب في دراسة العطاء التربوي القرآني أن يتخذ إحداها نقطة انطلاق يبني عليها خطة بحثية متكاملة ونعتقد أن ذلك أجدى من تركيز البحث في نقطة واحدة قد لا يجد فيها القارئ ما يبحث عنه من "إثارة" لمشكلات بحثية تهمه.

وفيما يلي نقدم عدة تصورات أكثر تحديداً لدراسات يمكن أن تتعرض للفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم:

التصور الأول: الأهداف التربوية في ضوء القرآن الكريم:

يقول أحد المربين المعاصرين: "إذا لم تكن متأكداً من المكان الذي تسير إليه فإنك ستنقل إلى مكان آخر".

وهذه الجملة البسيطة، توضح بشكل عملي أهمية تحديد الأهداف في حياة الإنسان العادي، فالذي يمشي مكباً على وجهه؛ محكوم عليه حتماً بأن يضلّ طريقه ، ولما كانت نظم التعليم الحالية وأشكالها المؤسسية أصبحت مسؤولة اجتماعياً عن تنشئة الأجيال وتهيئتها لحمل راية التقدم بالمجتمعات وقيادتها، فقد أصبح لزاماً على تلك المؤسسات التعليمية أن تبذل جهداً واضحاً من أجل تحديد ماهية رسالتها أو بتعبير آخر: أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها.

ومنذ ظهور تصنيف "بلوم" الشهير للأهداف التربوية في أوائل الخمسينيات من هذا القرن ظهرت مئات من الكتب والدراسات التربوية حول موضوع الأهداف، صياغتها واستخدامها، وبشكل عام تحتدم الخلافات بين الكتاب حول:

- مستويات الأهداف التربوية: ويقصد بها الغايات التربوية، والأغراض والأهداف العامة والأهداف الخاصة، ويختلف ترتيبها تصاعدياً أو تنازلياً من مؤلف إلى آخر.
- مصادر اشتقاق ولكنها (عند الجميع) لا تخرج عن ثلاثة مصادر تشتق منها أهداف التعليم وهي: المتعلم "من حيث نموه وحاجاته وميوله"، والمجتمع "من حيث طبيعته ونظمه ومشكلاته" والمادة الدراسية "من حيث مجالاتها ومكوناتها وطرق تدريسها".
- سلطة وضع الأهداف التربوية: ويقصد بها الجهة المنوط بها تنفيذياً تحديد الأهداف التربوية المرجوة: أهي السلطات السياسية، أم السلطات التعليمية؟.

والحقيقة التي نؤمن بها: أن كثيراً من التخبط الذي تعاني منه نظم التعليم في البلدان العربية والإسلامية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتخبط تلك النظم في صياغة أهدافها التربوية. وتبني المشروع الغربي في تناول تلك الأهداف تحت تأثير عوامل عديدة، منها: التبعية الثقافية "وبخاصة التبعية التربوية" للغرب، ويمكن حل هذه الإشكالية ببساطة إذا ما اتجهت دراسات تربوية تتناول صياغة أهداف تربوية في ضوء القرآن الكريم للمجتمعات الإسلامية. وتأتي هذه الخطوة من عدة منطلقات أهمها

- ثبات الأهداف إذا ما اشتقت من مصدر لا يتغير كالقرآن الكريم بكم كونه نصاً إلهياً لا يأتيه الباطل. وثبات الأهداف يحقق للنظم التعليمية القدرة على إنجاز مهامها في ظل وضوح رؤية نابعة من وضوح الأهداف واستقرارها. أما الأهداف الموضوعة باجتهادات بشرية فهي تخضع للأهواء السياسية المتقلبة وحسابات المصالح قصيرة الأمد؛ مما يسبب قلقاً دائماً للنظم التعليمية.
- إبراز الهوية الإسلامية في ارتكازها على كتابها السماوي في تشريعها التربوي الذي هو جزء من النظام الاجتماعي العام الذي ينبغي له أن يخضع – في شتى منظوماته الداخلية للتشريع الإلهي.
- التصدي للاتهام الشائع للتربية الإسلامية بأنها مجرد "مواعظ" وتوجيهات خطابية جوفاء لا تناسب العصر الحاضر.

والذي نتصوره في هذا الصدد: أن تأخذ عدة دراسات حديثة على عاتقها مهمة اشتقاق أهداف تربوية من القرآن الكريم مصنفة في مستويات تلائم المستويات المعروفة حالياً في الأوساط التربوية ، ولكن أسس تلك الأهداف مأخوذة من عطاء القرآن الكريم . وحتى لا نتهم بالخطابية ، فإننا نضرب مثالاً على ذلك: فإذا اعتبرنا "التقوى" مثلاً غرضاً تربوياً عريضاً، أو هدفاً أو غاية استناداً إلى قوله تعالى :﴿ .... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1] .

١- سورة البقرة: الآية٥٣ .

أو﴿ .... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾[1]، فمن الممكن في الخطوة التالية أن نضع تعريفاً جامعاً مانعاً للتقوى مستخلصاً من صفات المتقين بعد تحليلها موضوعياً من جميع أماكن ورودها في القرآن . وفي خطوة تالية نحول ذلك التعريف إلى خطوات إجرائية ملموسة يمكن قياسها . وفي الخطوة الأخيرة نوزع تلك الخطوات الإجرائية على مناهج المواد الدراسية المختلفة ، أو على المراحل التعليمية المختلفة .. وهكذا.

التصور الثاني: الطبيعة البشرية في ضوء القرآن الكريم:

الإنسان هو محور العملية التربوية الذي تدور حوله، فالطفل المتعلم "إنسان" بالدرجة الأولى يفرح، ويألم، ويحب، ويكره، وله طموحاته، وميوله، ويختلف كل فرد عن الآخر بدرجات متفاوتة من الاختلاف في كل ناحية من نواحي شخصيته. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الطبيعة البشرية كجزء أساسي من أي دراسة تخوض فلسفة التربية باعتبار الإنسان هو "الخامة" الأساسية للعمل التربوي .

وتتناول دراسة الطبيعة البشرية عناصر متعددة أهمها:

١- أثر كل من الوراثة والبيئة في تكوين الإنسان.

٢- الاختلاف بين الذكور والإناث: أنواعه - اتجاهاته - آثاره.

٣- هل الإنسان مسيّر أو مخيّر؟.

٤- أيهما أكثر تأثيراً في السلوك: الجسم أم العقل؟.

١- سورة البقرة: الآية٢

وقد قدمت الفلسفات التربوية المعاصرة آراء كثيرة في كل ناحية من هذه النواحي ، وتناول تلك الآراء كثيرٌ ممن كتبوا في فلسفة التربية. ولكن الدراسات التي تعرضت لدراسة الطبيعة البشرية في القرآن الكريم ما تزال محدودة جداً ، وفي تصورنا أن من الضروري قبل الشروع في وضع أسس للفكر التربوي الإسلامي تخصيص دراسة مستقلة لتجلية هذا الجانب الهام الذي هو -كما في البداية- محور العملية التربوية، فقد عرض الإنسان في القرآن منظوراً إليه من زاوية طبيعته البشرية من خلال:

أ – حديث القرآن عن الحواس: وظيفتها الأصلية، وإساءة استخدامها.

ب– حديث القرآن عن النفس: أنواعها – ودورها في السلوك.

ج– حديث القرآن عن دوافع السلوك: الوراثية، والبيئية.

د – حديث القرآن عن الحرية والاختيار في حياة الإنسان: وهي قضية نالت حظها من الدراسة على أيدي علماء الكلام ورجال الفرق والمفسرين.

التصور الثالث: الجوانب المعرفية في القرآن الكريم:

تتناول مباحث نظرية المعرفة الجوانب التالية بوجهٍ عامٍ:

١- طبيعة المعرفة (ماهيتها).

٢- مصادر المعرفة:(العقل – الحواس – الوحي – الحدس – العقل والحواس معاً).

٣- أنواع المعرفة.

وتأتي أهمية دراسة نظرية المعرفة كجزء أساسي من أي فلسفة تربوية، من كون التربية بطبيعتها عملية "نقل معارف" إلى جانب كونها عملية اكتساب مهارات وعملية خلقية. والملاحظ حالياً أن الاتجاه المسيطر على النظم التربوية المعاصرة هو تغليب الجانب المعرفي على الجانبين الآخرين: المهاري والخلقي . على الرغم من النداءات المتكررة لرجال التربية الحديثة بضرورة إيجاد "توازن ما" بين الجوانب الثلاثة.

ومع الانفجار المعرفي السائد حالياً تصبح عملية "اختيار" ما يقدم في المناهج المدرسية عملية في غاية الصعوبة. ففي العصر الحاضر يتضاعف العلم في أوربا كل خمسة عشرة سنة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية كل عشر سنوات، وفي روسيا كل سبع سنوات وفي الصين كل خمس سنوات؛ مما يدل على أن التنافس العلمي العالمي حالياً أصبح يجري بصورة تشبه السباق إن لم نقل الصراع.

والحقيقة أن البحث عن "نظرية" للمعرفة في القرآن الكريم أمرٌ لازمٌ لإبراز الهوية الحضارية للمجتمعات الإسلامية، وأمرٌ حتمي لإبراز "الذات" الخاصة للتربية في الشعوب الإسلامية.

وفي تصورنا أن مثل هذا البحث يمكن أن يتناول الجوانب التالية:

أ - طرق اكتساب المعرفة في القرآن (الدعوة إلى إعمال العقل -عدم إنكار دور الحواس في اكتساب المعرفة -التركيز على دور الوحي والإلهام ..إلخ).

ب- ماهية المعرفة في ضوء القرآن (فتح المجال أمام جميع العلوم مع مراعاة المعيار الشرعي في النفع والضرر على نحو ما توضحه كتابات التربويين القدامى كالغزالي وغيره).

ج- تصنيفات المعرفة القرآنية:

١- القرآن وعلوم الحياة (البيولوجيا: الحيوان والنبات والحشرات).

٢- القرآن وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

٣- القرآن وعلوم اللغة.

٤- القرآن والبحث التاريخي.

٥- القرآن وعلم الطبيعة (الفيزياء: الجوامد، الحرارة، الطاقة، الكتلة ، الزمن .. إلخ).

٦- القرآن والعلوم الرياضية (الحساب -الفلك -النجوم ..إلخ).

obeikandl.com

التصور الرابع: التربية في القصص القرآني:

على الرغم من أن هذا الجانب نال قسطاً أوفر من الدراسات التربوية الحديثة إذا قورن بالجوانب السابقة، فإنه ما زال يفتقر إلى دراسات أكثر عمقاً تتناوله من عدة زوايا جديدة لم تُطرق حتى الآن مثل:

١- دراسات تربط بين عطاء علم اللغة الحديث الذي يدرس "الأسلوب" وفقاً للمناهج الحديثة "التركيب النحوي والصرفي والصوتي والدلالي" وعطاء علوم النفس والتربية من أجل استنباط محتوى تربوي أكثر عمقاً.

٢- دراسات تتناول القصص القصيرة جداً في القرآن والتي لم تتوقف عندها الدراسات السابقة كثيراً مثل قصص (سبأ وسيل العرم - الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت الصافنات الجياد - بناء الكعبة - القوم الجبارين - أصحاب الجنة (سورة ن) صاحبي الجنتين(سورة الكهف) وغيرها).

٣- دراسات تتناول القصص النبوي الذي جاء لتوضيح قصص قرآني مجمل ، أو القصص النبوي الذي جاء تفسيراً لآيات قرآنية غير قصصية أو بها إشارات سريعة.

٤- دراسات تتناول القصص القرآني موضوعياً مقارناً من خلال عدة تفسيرات ذات اتجاهات (تفسير بالمأثور - تفسير بالرأي - تفسير إشاري - تفسير إجمالي).

٥- التصور الخامس : الدراسة التحليلية لسورة كاملة من القرآن الكريم ، بالتركيز على الجوانب التربوية الثلاثة : الجانب المعرفي ، والوجداني ، والمهاري .

أين تقع بحوث الإعجاز التربوي مما سبق ؟.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد العرض السابق لآفاق البحث التربوي في القرآن الكريم هو : أين تقع بحوث الإعجاز التربوي مما سبق ؟ وللإجابة على هذا السؤال يأتي هذا الكتاب متضمنا :

١- فصلا يضم نماذج تطبيقية لمواقف تربوية يومية في حياة المسلم كالمشي في الطرقات وتناول الغذاء ، والبحث عن مهنة يرتزق منها ، وكيف كان القرآن معجزا وهو يقضي في تلك المواقف بأخصر عبارة وأشملها ، بالنظر إلى ما يكرسه الفكر الوضعي المعاصر لكل منها من مؤتمرات ومنتديات وملايين الصفحات التي لا تغني شيئا ويأخذ بعضها بتلابيب بعض .

٢- فصلا ثانيا يتناول إعجاز القرآن في تقديمه أصولا للتربية التي تقي المسلم من كل شر.

٣- فصلا ثالثا يتناول إعجاز القرآن في تقديمه أصولا للتربية التي تعالج المسلم من كل خطأ أو خطيئة أو شر وقع فيه .

٤- فصلا رابعا يتناول إعجاز القرآن في تقديمه أصولا للتربية مستقاة من دراسة استقصائية حاولت إبراز سلوك الجبارين ومآلهم .

٥- فصلا خامسا يتناول إعجاز القرآن في تقديمه أصولا للتربية مستقاة من تحليل لسورتين كاملتين من سور القرآن الكريم .

أما بعد

فلعل في السطور السابقة إشارة كافية للإمكانات البحثية التي ما تزال بكراً في مجال القرآن الكريم والفكر التربوي. أردنا بها فتح الباب أمام طلاب البحث العلمي الصابرين الصادقين، الذين سيجدون صعوبات جمّة في هذا الطريق، ولكن إيمانهم بقيمة ما سيصلون إليه من نتائج قيّمة مفيدة يعصمهم من الملل والزلل.

وفي هذا الكتاب محاولة لتطبيق ما ذهبنا إليه ، نرجو أن يكون فيه ما يفيد الباحثين والسائرين على طريق الهداية .

وأرجو من كل قارئ يرى عيبا في الكتاب أن يرشدني – مشكورا مأجورا – إليه لأستغفر الله منه ، وأصلحه في طبعة قادمة .

والله ولي التوفيق

د. مصطفى رجب

obeikandl.com